

عروس النيل

[رسالة مهداة إلى روح الأب العظيم عبد السلام مبارك]

للدكتور زكي مبارك



في هذه السنة نَحْلَفُ النيل ، وَنَحْوَفُ الناسَ عواقب
السدود من النهر الوفي المحبوب ، نَتَذَكَّرُ ما وقع في أيام
سينوستريس ، وَنَعْتِدُ لو رجعنا إلى عهد الوثنية ، فأهدينإليه
صبية ، لينشرح فيمودا

وقبل أن أسوق الحديث عن عروس النيل أذكر أشياء
من الحياة المصرية قبل إنشاء خزان أسوان ، وهي حياة تختلف
عن حياة اليوم كل الاختلاف

لم يكن النيل يغمر أرض مصر أكثر من شهرين ، ثم
ينحسر بعد أن يضيع منه في البحر ما يضيع ، ولكنه مع ذلك
كان يترك ثروة عظيمة من المياه الجوفية ، المياه المخزونة في جوف
الأرض ، وكانت تلك المياه زاد المصريين إلى أن يمود النيل
من جديد

ولهذه الأسباب كانت مصر أقدم أمة أجادت طي الآبار
والسواقي ، فكان في كل بيت بئر ، وفي كل مزرعة ساقية ،
وكان في منازل المياسير ما يسمّى بالصهاريج ، وهي أحواض

واستمر العرب على ما ألفوا من سنن الصيد في الجاهلية ؛
وزادوا ضروباً من السلاح ومن الحيوان الذي يستعينون به على
الصيد . زادوا قوس البندق وغيرها ، وعلّموا الفهود وكثيراً من
الطير الجارحة . واحتفى الأمراء والكبراء بالصيد وأعدوا له
عُده من الرجال والحيوان والسلاح . وعنوا بتربية الحيوان
وتفريقته ، ووضعت الكتب في هذا الفن الذي عرف باسم البهزة
أخذاً من كلمة « بازيار » الفارسية ومعناها القيم على البازي أو
البزاة . ولكشاجم الشاعر كتاب المصايد والمطارد . وبالرجوع
إلى هذه الكتب أو كتب الأدب الجامعة مثل نهاية الأرب
ينبني غناية العرب بهذا الفن وولع الشعراء به

افتن الشعراء ثم الكتاب في وصف الصيد وآلاته وحيوانه

مسحورة تحفظ كيات عظيمة من الماء الزلال
والذين زاروا المأبد الفرعونية يذكرون أن بها آباراً في
أكثر الجوانب ، وكذلك كان الحال في العهد الإسلامي ،
فلا تزال في منزل السحيمي بالقاهرة ساقية ، وإن طال على
هجرها الزمان

وغيبة النيل شهوراً طويلاً من كل سنة لم تكن تؤذي
المصريين بعد أن أجادوا طي الآبار والسواقي ، ولو شئت
لقلت إن غيبة النيل كانت أداة من أدوات التحصين ، فقد
كانت المواصلات في المهود القديمة تعتمد على الملاحه ، وكان
من المسير على من يفزو مصر أن يتجه إلى الجنوب مع تعذر
الملاحه في النيل ، بسبب الجفاف أيام التحاريق ، وخوفاً من عنف
التيار أيام الفيضان ... وهذا في نظري أهم الأسباب في ميل
الفراعنة إلى أن تكون عواصمهم بالصعيد ، فقد كان لهذا المعنى
أمنع من نواصي الجبال

هل قرأتم في أي كتاب أن الفراعنة أجادوا تمييز الطرُق
الزراعية ؟

لقد تركوا هذا الجانب من النظام عامدين متممدين ، ليكون
التوغل في بلادهم باباً من العناية

وبمناسبة الآبار أذكر ما شهدت منها بعميد الكرنك ،
فقد كان المهندسون يشقون الأحجار الكبيرة بنسبة معلومة ،

وحركاته ووصف المصايد . وقد استقل وصف الصيد في الأراجيز
والقصائد التي عرفت بالطرديات فصار فناً أدبياً متميزاً .
ومن الشعراء المفتنين فيه أبو نواس . نظم فيه تسماً وعشرين
أرجوزة وأربع قصائد . وأبدع في وصف كلاب الصيد وطيره .
قال الجاحظ في كتاب الحيوان عن أبي نواس :

وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب لأنه كان عالماً راوية .
وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا يعرفه الأعراب
وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه .
هذانم جودة الطبع وجودة السبك ، والحنق بالصنعة . وإن
تأملت شعره فضلته

هيب الراهب هزائم

(لكلام ملة)

ما القيمة الصحيحة لأن نعرف أن الزهرة مجموعة جرائم ،
وهي في نظر الجبل خدعة وهشاج ؟

أين من يردني إلى العهد الذي كنت فيه أجهل الجاهلين ؟
ليت الحوادث باعتشى الذي أخذت
منى بحلى الذي أعطت وتجربى

عروس النيل

تضاربت الأقوال في الأسطورة الشعرية ، أسطورة عروس
النيل ، وانتفى الأمر بوزارة المعارف إلى حذفها من الكتب
الدرسية ، لتصون الأبناء من السخرية بالأجداد . ولكنى مع
هذا أرى من الخير أن يعرف أبنائنا جميع الأساطير ، ليعرفوا
حيرة الإنسانية بين الحقيقة والخيال

وسأسوق هذه الأسطورة كما رأيتها في كتاب مخطوط
لمؤلف مجهول ، ففيها طرافة فنية ، وفيها لفتات جذيرة بالتسجيل :
في العام الثالث من حكم رمسيس الثاني وهو عام ١٣٢٧
قبل الميلاد تخلف النيل ، فلم تظهر طلائمه في شهر أبيب
ولا في شهر منسرى ، وامتد به التخلف إلى شهر توت ، فجأر
المصريون بالشكاية ، وتجمهروا حول قصر الملك صارخين ضارعين
وماذا يصنع الملك ؟ ماذا يصنع والشعب يطالبه بما لا يطيق ؟
هل يصدق الخرافة التي ذاعت في ذلك الوقت عن أسر النيل
بأمر ملك الأحباش ؟ وهل يستطيع ملك أن يأمر النيل . وهو
ملك الملوك ؟

إن النيل لا يقهره قاهر ، إن أراد الوفاء ، فما الذي صدّه
عن الوفاء ؟

ثم دعا الملك أقطاب السحرة ليرى ما عندهم في حل هذه
المعضلة ، فكان هذا الحوار الطريف :

الملك — ماذا ترون في تخلف النيل ؟ أتنظرون كما يظن
الجمهور أنه في أسر ملك الأحباش ، وأن من الواجب أن نجرد
حمة لتأديب ذلك الطاغية ؟

الساحر الأول — وماذا يملك عاهل الحبشة من أمر النيل ؟

الساحر الثاني — هو يملك الخاتم السحري ؟

الملك — وما ذلك الخاتم ؟

الساحر الثالث — هو خرافة منقولة عن أساطير الأولين

ثم يضمون حجراً فوق حجر ، كما يوضع الطوق فوق الطوق ،
لتصير الآبار في أمان من الاختلال

وكان للآبار في مصر منزلة شعرية تفرق المنزلة النعمية ، فقد
كان مفهوماً عند الجمهور أن لكل بئر ملائكة تختلف باختلاف
المكان ، فهذا البئر مسكون بأرواح لطاف ، وذلك البئر مسكون
بأرواح كيثاف ، وباختلاف الروح يختلف طعم الماء في اللوحة
والعدوبة والكدر والصفاء^(١)

وكانت هذه العقيدة ملحوظة في تقدير السواق من الوجهة
الروحية ، فلا خطر من نزول هذه الساقية لأنها مسكونة بأرواح
خيرة ، أما تلك الساقية فسكونة بأرواح شقية ، ألم تسمعوا
أنها قتلت فلاناً حين تجاسر على نزولها بالليل ؟

ومياه الآبار والسواق باردة في الصيف وحارة في الشتاء ،
فما سبب هذه الظاهرة الغريبة ؟

يقول المسلم إن مياه الآبار والسواق بعيدة عن التأثر بالأحوال
الجوية ، فهي لذلك باردة في الصيف وحارة في الشتاء ، فهل كان
هذا هو الرأي عند أهالي الريف ؟

كان الرأي عندهم أن للأرض وجهاً آخر ، وجهاً يمانى برد
الشتاء حين نمانى حر الصيف ، ويمانى حر الصيف حين نمانى
برد الشتاء ، وكان مفهوماً أن السبيخ الذي يفجر الميرون
في الآبار والسواق يحرق القبة القائمة بيننا وبين البحار التي تسقى
الوجه الثاني من الأرض ، وكان ذلك هو السر في أن يختلف
الماء بالحرارة والبرودة باختلاف الجو هنا وهناك

هذه الأخيلة الطريفة كانت الزاد لأهل الريف منذ زمن
وأزمان ، والفلاح المصري شاعر بالفطرة والطبع ، فما كانت
الدنيا عنده إلا ميدان قتال بين الملائكة والشياطين

إن الأمم لا تعرف الأساطير إلا في عهود الفتوة ، فإذا
اكتنفت عرفت الحقائق ، وسعادة الكهول بالحقائق لا تقاس
إلى سعادة الفتيان بالأباطيل

كان أهل الريف سمعاء بالجهل ، لأنه طوف بهم في آفاق
شعرية ، فافائدة العلم الذي يواجه أهله بحقائق أقدس من الجلاميد ؟
وهل أسعد العلم كبار أهله حتى يسعد صغار الفلاحين ؟

(١) البئر في لغة أهل النوبة مذكر لا مؤنث

الفجريات والمصريات ، وقد سقط النسيب ، وغفل
الرقيب ؟

الساحر الأول - هو ذلك يا جلالة الملك ، ولكن الجمال
المصرى جمال لثيم ؟

الملك - ما هذا الذى تقول ؟

الساحر الأول - المقام لا يسمح بالرياء ، وكيف ترائى
سيروستريس وهو أصرح الملوك ؟

الملك - هات ما عندك يا كبير السحرة ، فقلنى ممخض إليك
الساحر الأول - أنا رأيت وما سمعت

الملك - وماذا رأيت ؟

الساحر الأول - رأيت النيل هام بصبية ...

الملك - ثم ؟

الساحر الأول - ثم مد إليها ذراع الموج ليجذبها إليه
الملك - ثم ماذا ؟

الساحر الأول - ثم فترت الصبية ولاذت بالشط ، فهو
لذلك غائب وغضبان

الملك - العلم الذى ورثناه عن الكهنة يحصر الحياة
فى النبات والحيوان . فكيف يهيم النيل بصبية وهو ليس
من الأحياء ؟

الساحر الأول - إن الله جعل من الماء كل شئ حى ،
فكيف يكون الماء سبب الحياة إذا كان من الأموات ؟

الملك - ومعنى هذا أن الماء يعشق ؟

الساحر الأول - ويعشق

الملك - ومن عاشق الماء ؟

الساحر الأول - تحدث عنه شاعرنا بنشأور حين قال

فى الصبهاء :

مقطبة ما لم يزرها مزاجها فإن زارها جاء التبسّم والبشر
فيا عجباً للدهر لم يُخلل مهجة من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

الملك - لن أكذب الكهنة فى قولهم بأن الماء جاد

الساحر الأول - أنا أوافق مولاي على أن الماء جاد ،

ولكنى أرجوه أن يتفضل فيتذكر أخطار الجمال المصرى

الملك - وما أخطار ذلك الجمال ؟

الساحر الثانى - أتكذبى يا زميلى فى حضرة جلالة الملك ؟

الساحر الأول - إن تفضل جلالة الملك فأنا أفضى إليه
بالسر فى تخلف النيل

الملك - من أجل هذا دعوناك

الساحر الأول - النيل عاشق غضبان

الساحر الثانى - النيل عاشق ؟ ما سمعنا بمثل هذا الكلام

قبل اليوم !

الساحر الأول - أظن أن النيل يوحى العشق وهو يجهل
العشق ؟

الساحر الثانى - العشق يصدر عن أهل الذوق ، والنيل

بلا ذوق

الساحر الأول - وما برهانك على أن النيل بلا ذوق ؟

الساحر الثانى - لأنه لا يستقيم فى سيره أبداً ، ولو كان
من أصحاب الأذواق لعرف قيمة الطريق المستقيم ، وهو كما ترى
غاية فى التخبط والاعوجاج

الساحر الرابع - لولا هيبة الملك لرميتك بالجهل

الملك - هيبة الملك لا تمنع من كلمة الحق

الساحر الرابع - إن زميلى بطالب النيل باستقامة الضمعا
وليس النيل بالضعيف

الملك - ماذا تريد أن تقول ؟

الساحر الرابع - أريد أن أقول إن استقامة الأقوياء
فى ضمائرهم لا فى ظواهرهم ، واستقامة النيل تتمثل فى ذلك
الاعوجاج

الملك - إن كلامك يحتاج إلى توضيح

الساحر الرابع - لن أوضح كلامى لجلالة الملك ، لأنه أقدر
الملوك على فهم الرموز والتلاميخ

الملك - أوضح لزميلك

الساحر الرابع - ما كان لى زميل ، وهو بين السجرة
دخيل

الملك - دعوا هذه اللجاجة وارجعوا إلى الحديث عن

العاشق الغضبان

الساحر الأول - إن النيل لا يأخذ زاده من العواطف

الملك - كيف تقول هذا والعبايا يتهادين إليه فى

الساحر الأول - تلك طبيعة بلادك يا مولاي
 الملك - إذن ؟
 الساحر الأول - وإذن نترضى النيل بصيبة مليحة لترويه
 على الوفاء
 الملك - صيبة تفرق فتموت ؟
 الساحر الأول - إن من يصدق في حب النيل لا يفرق
 ولا يموت
 الملك - وما ذا تكون الحال إذا ترستينا النيل بصيبة
 مليحة ثم أصر على الجفاء ؟
 الساحر الأول - نظرة واحدة من فتاة مصرية ترزّل
 رواسي الجبال
 الملك - وأنا أرفض أن يكون الجمال المصري من أدوات
 الاستغلال
 الساحر الأول - الصيبة المنشودة لن نمانق غير أبيها ،
 والنيل هو الأب الأول لجميع الأبناء بهذه البلاد
 ثم نادى المتأدب في اليوم التالي بأن النيل لن يعود إلا إن
 ضمن الظفر بعروس خيرية اللون ، عروس عيونها عسلية ، عروس
 تؤمن بأن الفناء في الواجب هو طريق الخلود
 وبعد يومين اثنين تجملت عرائس تفوق الإحصاء ، فاستمكن
 أن تخلو مصر في أي وقت من عرائس جميلة تعدّ بالألوف
 وألوف الألوف . فوقف سيزوستريس وقفة الحيران ، في تحير
 ما يشتهي العاشق الغضبان
 ثم التفت قرأى صيبة تأتي بنفسها في الي . وما كاد يتبين
 هويّة الصيبة حتى رأى النيل يتناغى بالألوان في كل مكان
 من تلك الصيبة ؟ لم يستطع أن يعرف ، وبهذا كانت مصر
 أول من ابتكر فكرة الجندي المجهول
 ومضى سيزوستريس إلى العبد فترنم بصلوات على روح تلك
 المليحة السمراء ، وسمع النيل صلواته فقال : الترحم لا يكون
 إلا على ميت ، ولا يموت من يكرم النيل
 وتسامع المصريون بأخبار سيزوستريس وهو رئيس الثاني
 فأقاموا له في كل بلد عدداً من التماثيل ، ودام ملكه ستين سنة
 أو تزيد بفضل عروس النيل
 أما بعد فأنا لا أدعو وزير الأشغال إلى استمطاف النيل بضحايا

الساحر الأول - لو صوّب الجمال المصري ناره إلى هضاب
 الحبشة لأحاطها إلى قطرات من الماء المبدول بغير حساب
 الملك - وثري أن نداعب النيل بالجمال ؟
 الساحر الأول - أرى أن يكون للنيل في مصر هوى
 وميماد ، فما يعود حتى إلى بلد إلا إن كانت له فيه أهواء ومواعيد
 الملك - وعند النيل هذا الذوق ؟
 الساحر الأول - وعنده الحقد على أهل العقوق
 الملك - وماذا يقول الشعب إن أقررنا مبدأ الاعتراف
 بالعشق ؟
 الساحر الأول - سيقول الشعب إنه يعيش تحت راية العدل
 الملك - والعشق عدل ؟
 الساحر الأول - المشق من نتائج العدل
 الملك - أوضح ثم أوضح يا أعظم حكيم رآه سيزوستريس
 الساحر الأول - المشق يا مولاي هو انجذاب روح إلى
 روح ، ولا صفاء بين عاشق وممشوق إلا بحفظ الحقوق ،
 ولو وجّه العاشق إلى ممشوقه كلفة تنفض من جماله لكان
 الفراق إلى آخر الزمان
 الملك - أهذا هو العدل عندك يا كبير السحرة ؟
 الساحر الأول - العدل هو مصدر الحب لجلالة الملك ، ولولا
 قولك بأن شعبك خلق للسيادة على الأقطار الأفريقية والآسيوية
 لتخاذل الشعب عما أردت من التزوات والفتوحات
 الملك - الشعب يحبني ؟
 الساحر الأول - الشعب يحبك لأنك تحبه ، وأهل مصر
 يقولون : « إن أحببتك حية فتطوق بها » ، ولهذا اللفتة صلة
 بوجود الحيات حول تيجان الفراعين !
 الملك - أنت ساحر ، يا ساحر !
 الساحر الأول - وعن لطف جلالة الملك أخذنا السحر والفتون
 الملك - عنكم نأخذ طرائف المعاني يا أدباء وادى النيل ،
 وعنكم تلقى الروح فلاسفة اليونان
 الساحر الأول - ماذا يرى جلالة الملك في اجتذاب العاشق
 الغضبان ؟
 الملك - آه ثم آه من بلاد لا يستقيم فيها شيء بغير الحب
 والجمال !